الفصل الأول

عولمة ثقافية أم اختراق ثقافي ؟!

يرى الباحث عبد الله أبو راشد أن (العولمة الثقافية هي محاولة مجتمع ما تعميم نموذجه الثقافي على المجتمعات الأخرى ، وذلك من خلال التأثير على المفاهيم الحضارية والقيم الثقافية والأنماط السلوكية لأفراد هذه المجتمعات بوسائل سياسية واقتصادية وثقافية وتقنية متعددة من خلال دينامية الاختراق الثقافي واستعمار العقول واحتواء الخبراء وربط المثقفين بدائرة محدودة ينشدون إليها بصورة بعيدة عن إعمال العقل التفاعلي للذات وإبقاءه في سياق الأداة الوظيفية التيسيرية المحضة) .

وهذا النمط من التفكير والآلية الحركية لسلوك المنفعة والاحتواء يلقىٰ رواجاً في تكتيك واستراتجية الإدارة السياسية في الولايات المتحدة الأمريكية باختلاف رموزها في شبه إجماع عُبر عنه في أكثر من مكان وموقع ، وقد وظفت من هذا التوجه المال والخبرات والمؤسسات الثقافية الكبرى والإعلامية وأجهزة المخابرات المركزية الأمريكية ، حيث قال الصحفي الأمريكي (جيمس روستون) في هذا السياق :

(إن الصحفيين والكتاب ورؤساء تحرير الصحف الجامعية ليسوا بالطبع أغنياء جداً وبعضهم ضعيف ورخوا أمام الإفساد المالي ، ولم

تتردد وكالة الاستخبارات المركزية في استمالتهم عندما تستطيع أن تفعل ذلك)[1] .

ويكرّس هذه الاستراتيجية النفعية والاستيعابية الأمريكي (جاسون إبستاين) بقوله :[2] .

(لا تقتصر المسألة على شراء كتّاب أو جامعيين ، بل ترمي إلى إقامة نظام للقيم ، شكلي ومصطنع ، يحصل بواسطته الجامعيون على الترقيات ، ويُرشىٰ محرروا المجلات ، ويُعطى العلماء مساعدات مالية ، وتُنشر مؤلفاتهم ، لا لقيمتها الذاتية ، التي قد تكون أحياناً ، وإنما بسبب ولائها السياسي ، وإن وكالة الاستخبارات المركزية ومؤسسة فورد قد أقامتا وموَّلتا جهازاً من المفكرين جرى اختيارهم لأسباب تتعلق بمواقفهم الصحيحة من الحرب الباردة) .

وليس غريباً القول بأن العولمة الثقافية المشهودة آنياً ليست أحادية الجانب ولا تأخذ أنموذجاً محدداً دون آخر ، بل كانت ومازالت مدار صراع تاريخي مُحكم ما بين الثقافات الإنسانية عموماً ، والأنكلوسكسونية والتي تتزعمها حالياً الولايات المتحدة الأمريكية والفرانكوفونية التي تدعو إليها بقوة وفاعلية فرنسا والتي استندت إلى إرث تاريخي ولدته شعارات الثورة الفرنسية وأنماط الاستعمار القديم في غزوات نابليون بونابرت من دعوات إصلاحية وتبشيرية ، تسويقية ، وتبريرية لحضارية المستعمر تحت مقولات المساواة والتآخي والحرية ، والاستقطاب الحديث من خلال اختراقات الجذب الثقافي الفرنسي للمفكرين والكتاب والفنانين والمبدعين من كافة الشعوب والجنسيات

---

(١) للتوسع يراجع : الإمبراطورية الأمريكية ، كلود جوليان : ٤٠٢ـ٤٠٥ .
(٢) نفس المصدر السابق .

ومحاولة إدماجهم في مظلة ثقافتها الفرانكفونية ، والآسيوية بزعامة اليابان.

وكلاهما (الانكلوسكسونية ـ الفرانكوفونية) مهدتا لبروز العولمة الثقافية في العصر الراهن ، من خلال مؤشرات دلالية حملتها واحتضنتها العوامل الاقتصادية والمكتشفات العلمية والتقنية في تقاسم وظيفي جديد للمنافع والمصالح الحيوية ثنائية العولمة الثقافية .

وقد استفادت بلا شك أطراف إدارة لعبة الثقافة من أجل الهيمنة والاحتواء وأساليب التأثير المتبادل والتعبيرات الاصطلاحية المتداولة مثل (المثاقفة) في نشر ثقافتها الخاصة وغزو العقول واستباحة ثقافات الشعوب خطوة باتجاه تدجينهم واندماجهم فيها .

وبلا شك أن الدينامية الصاعدة للثقافة الآسيوية المستندة على قاعدة ارتكاز اقتصادية وتقنية مبحث للقلق في الدوائر الأمريكية والأوروبية والفرنسية على وجه الخصوص ، معتبرة ذاتها (الفرانكوفونية) هي أم الثقافات الإنسانية الحية ودائمة الحركة والتوهج في إنتاجية المعرفة والإبداع في كافة المحافل الرسمية وغير الرسمية وبالعديد من دول العالم ، وتمثل رأس الحربة الصدامي مع العولمة الثقافية الأمريكية والآسيوية على حدٍ سواء .

ومن هنا يمكن القول بأن ثنائية التناقض الأبدي مازالت تجد لها متسعاً في مساحة الزمان والمكان وسيرورة التاريخ المتغيرة ، والتي تحاول فيها العولمة الثقافية الأمريكية فرض نموذجها بما لديها من نفوذ عالمي اقتصادي وعسكري وتقني ، والترويج لذاتها الأحادية كأفضل الثقافات ، وبسط سطوتها الثقافية المقتدرة . . .)[١] .

---

(١) العولمة في النظام العالمي والشرق أوسطية : ١٥ـ١٧ .

أجل!

فالذي ساعد الولايات المتحدة الأمريكية في محاولاتها الجادة لبسط نفوذها الثقافي ـ العولمة الثقافية ـ على الآخرين : قوة اقتصادها ، وتقدمها التكنولوجي .

لذلك تسعى الولايات المتحدة إلى استخدام كل الأساليب لجذب المهاجرين من ذوي الخبرات العلمية والمهنية ، وفي جميع الاختصاصات .

وهذا ما تثبته الوقائع يوماً بعد يوم ، وقد صرَّح وزير الخارجية الأمريكية الأسبق (جين راسك) بقوله :

(إن لبلادنا حظاً نادراً لأن باستطاعتها اجتذاب مهاجرين من الخارج أصحاب ذكاءٍ عالٍ وكفاءةٍ مرتفعةٍ ، فالهجرة إذا ما نظمت يمكنها أن تكون إحدى أكبر مواردنا القومية)[1] .

وهذا الذي جعل الولايات المتحدة الأمريكية تركز على مسألة اختراق الثقافات لتخضعها لكل ما تصدره من معلومات ومعرفيات ، وذلك من خلال شبكات الاتصال المتطورة ، ومراكز الأبحاث والثقافة ، كالوكالة الأمريكية للإعلام (U.S.I.A) ، ومصلحة الإعلام الإمريكية في أوربا الغربية ، ومؤسسة فورد الثقافية ، ودائرة التجسس المركزية (C.I.A) ، وعن طريق الندوات والمعارض ، وشراء أصحاب الأقلام ، ونحو ذلك .

لذلك فالدور الوظيفي المرسوم لشبكة التلفزة الأمريكية (CNN)هو : (إننا نحاول الحصول على معونة كتّاب مشهورين في عالم الأدب ونطلب

(١) الامبراطورية الأمريكية ـ مصدر سابق ـ : ٣٣٦ .

منهم تأليف الكتب لحسابنا ، فشهرتهم تعطي الكتاب إمكانية أكثر للتصديق والإقناع)[1] ، وبالتالي (فاختراق العقول مقدمة منطقية لاحتوائها ، وبالتالي استخدامها وظيفياً في مصلحة تعميم الثقافة الأمريكية ، والترويج لأفكارها في كافة مرافق الحياة العامة والخاصة للمجتمعات البشرية ، ومن استراتجية الاختراق ـ الاحتواء التدجين ـ الاندماج ، لأن اختراق العقول هو رأس مال السياسة النهائية للعولمة الثقافية .

وهذا التفكير المنطقي ليس عدمياً أو سلفياً أو مجرد دعابة استعراضية ، إنما هو ضرورة أمريكية يفترضها الفعل الثقافي الأمريكي كنتاج خبروي تراكمي لمجموعة التجارب والاختراقات في الميادين الأخرى ، لأن التجريبية الأمريكية وأساليب البحث والاستقصاء في مخابر استلاب خبرات الشعوب تولي العقول واختراقها أهمية استثنائية باعتبارها ـ أي العقول ـ هي تجسيد مجازي لعناصر النخبة المتنورة القادرة على التفكير والتغيير في مبنى مجتمعاتها .

وهي الأقدر على مواجهة أشكال الغزو الثقافي ، وهذه الحقيقة الموضوعية تدركها إدارة فعل القرار في الولايات المتحدة بعد أن فشلت أساليب الغزو العسكري المباشر ، والترهيب والترغيب والحصار الاقتصادي والنمطية التقليدية في الإثابة والعقاب وأُسقطت في بعض الدول .

لأن صلابة الموقف التنويري الذي يلعبه العقل في مواجهة الاختراق تحتاج كل هذه الدينامية في عمق التفكير السياسي والثقافي الأمريكي .

---

(١) نفس المصدر السابق : ٣٤٠ .

وعمدت من أجل ذلك بالاعتماد على مغريات المادة والجنس وسطوة الإفساد المالي الموجه لمجموعة المتنورين وحملة لواء الفكر والثقافة والإبداع الوطني والقومي في بلدانهم كمحاولة لتنفيذ سياستها في الاحتواء ، وقدمت المنح والبعثات التعليمية العليا والدورات التدريبية والمكافآت المالية التشجيعية ، وتعزيز الأنا الفردية وإيثار الذات على مصلحة الجماعة والربط الخيطي والشبكي العنكبوتي بعجلة العولمة ، كل حسب اختصاصه وبراعته ومراحل اندماجه .

ولعل الكاتب الياباني الأصل « فرانسيس فوكوياما » يُمثل أسطع الشواهد وأنموذجاً مثالياً لاستراتيجية اختراق العقول)[١] .

أجل!

هذا هو الاختراق الثقافي بالذات ، بحيث يصبح المثقف ـ وفي كل أنحاء العالم ـ وفي كافة الميادين : الفكرية والاجتماعية والأدبية ، بل وحتى في مسألة الأزياء واللباس يصبح مقلِّداً لما يخترق بصره وسمعه وحواسه كلها من نشر الثقافة الأمريكية .

أي : هي عملية إسقاط كل المواقع الثقافية والفكرية لإنسان هذا القرن ، والتخلي عن تراثه وثقافته . . . بل التخلي عن كل ما يحمله عقله ! !

وهذا الأمر ـ الاختراق الثقافي ـ ليس بدعاً من القول ، بل منذ عشرات السنوات الماضية عمدت إيطاليا إلى اتخاذ هذه السياسة في ليبيا ، وكذلك فعلت بريطانيا في الأردن والعراق وفلسطين ، وكذلك فرنسا في الجزائر

---

(١) العولمة : عبد الله أبو راشد ـ مصدر سابق ـ : ٣٣ـ٣٥ .

وسورية ولبنان ، وهذا ما أطلق عليه : (الفرنسة) و(الأنكلة) و(الأيطلة) و. . .

وهذا ما تفعله أمريكا اليوم ، وهي (أمركة الثقافة والإعلام) ، والذي ساعد على ذلك كله تسارع التقنيات الإعلامية ، وامتلاك أمريكا لأكبر نصيب من شبكات الإنترنيت ووكالات الأنباء والحواسب المتقدمة ونحو ذلك . . .

* * *

لكن العلماء قالوا :

إن لكل أمة خصوصيات في الأفكار ، وبالتالي فهذه الأفكار تمثّل فيها روح الأمة ، أي : لكل حضارة من الحضارات أفكارٌ تميزها عن غيرها ، وتطبعها بطابع مميز ، ولذلك فإذا ازدهرت حضارة من الحضارات معنى ذلك أنها تقوم على أفكار معينة محددة ، لكن إذا بدأت الحضارة بالذبول والتراجع ، معنى ذلك أنها بدأت تتخلى عن الأفكار التي قامت عليها .

وهذه (الفكرة الحضارية) هي التي تجعل العلماء يميزون بين الحضارة المصرية القديمة مثلاً وبين الحضارة اليونانية ، وبين الحضارة اليونانية وبين الحضارة الإسلامية ، وهكذا. .

لذلك فإن السر في أهرامات مصر ليس هو البناء العظيم فقط ، بل إن المسألة أكبر من ذلك بكثير .

إن السر الحقيقي هو في الأفكار التي كان يحملها المصريون القدماء عن الحياة والموت ، وعن البعث والخلود . . .

ومن الملاحظ أن كل (فكرة حضارية) تتصف بالميل إلى الانتشار ومجاوزة الحدود الوطنية ، بل إن بعضها يميل إلى الغزو من أجل تحقيق فكرة الانتشار ، وهذه العالمية للأفكار الحضارية لن تتحقق إلا على أيدي

المثقفين المهتمين بقضايا الثقافة ، والمتحمسين إلى تحويل الأفكار الحضارية إلى دعوات تشرُّق وتغرُّب .

وهذا ما عبَّر عنه (هيغل) وهو في صدد تعريف دقيق للمنطق ، قال : (المنطق هو الاستيلاء على العالم بالعقل) .

لكن انتشار الأفكار الحضارية والتي تبنتها الايديولوجيات لم يصبح واضح المعالم إلا على يد الحضارة الرأسمالية المعاصرة .

والسبب في ذلك أنها هي أول من امتلك وسائل الاتصال المتطورة .

وهو ما يُطلق عليه (ثورة المعلومات) أو (الانفجار المعلوماتي) ونحو ذلك .

وبالفعل استطاعت ثورة المعلومات خلق الظروف المواتية لهيمنة الأخلاق والأفكار والمعتقدات التي يرغب النظام الرأسمالي أن ينشرها على أكبر عددٍ ممكن من عقول سكان المعمورة ، وذلك بهدف السيطرة التامة على أفكار وعقول ومقدرات الآخرين ! !

وما هي إلا أيامٌ حتى أثبتت الوقائع أن حرية العالم الرأسمالي الذي يتبجَّح بها الرأسماليون لا يمكن أن تتحقق إلا على حساب حرية الشعوب الأخرى ! !

وبالتالي عمد النظام الرأسمالي إلى ربط الكلِّ بالمركز ، وهذا هو جوهر العولمة ! !

لذلك بدأ العالم اليوم يحصد نتائج ذلك عن طريق الثقافة الاستهلاكية والسريعة وهي التي لا تعدو عن مسألة التسطيح الكامل ، والتعميم السطحي لكل شيء .

والهدف أولاً وآخراً هو جعل العالم بأسره يسير على كل التفصيلات الواردة في النظام الرأسمالي : أي (رسملة العالم كلّه ! !) .

فماذا حدث على أرض الواقع ؟

يجيب إسماعيل صبري عبد الله على ذلك بقوله : (إن الرأسمالية الكوكبية لم تعد بحاجة إلى القوات المسلحة إلا كسوق تورد له الأسلحة ، وكمصدر لتمويل بعض أعمال البحث والتطوير ، وكلنا نعلم ونرى حتى في مصر الاستغناء عن الشرطة اعتماداً على وحدات الأمن الخاصة التابعة للشركات أو المتعاقدة معها .

ووصل شيوع بطاقات الائتمان في دفع ثمن المشتريات حتى في بلادنا أوسع من الدفع بالشيك ، وفي الحالين نحن نتعامل مع نقود مصرفية تصدرها البنوك دون الرجوع إلى سلطات الدولة في أي شيء .

وقد استغنت الشركات الكبيرة بصفة عامة عن القضاء في المسائل المدنية التجارية بالالتزام سلفاً بإجراءات التحكيم .

والشركات الآن ليست بحاجة إلى هيئة البريد لأنها تستخدم الفاكس أو شركات البريد السريع .

والأمر في بلدان العالم الثالث أخطر من ذلك لأن ضعف البرجوازية المحلية ـ الثقافي والإداري والمالي والإنتاجي ـ يجعلها تجرُّ الحكومة جرّاً لمساعدتها ودعمها وحمايتها وإعفائها من الضرائب . . الخ .

وكثيراً ما تستخدم إفساد ممثلي الدولة وسيلة لاستبعاد المنافس أو خطف عقد على غير أساس من التفوق على العروض الأخرى)[1] .

كل هذا سيزيد من إبراز التناقضات والصراعات والتخدلات العسكرية

(١) للتوسع يراجع مقال : الكوكبة (الرأسمالية العالمية في مرحلة ما بعد الإمبريالية) ، مجلة الطريق ، عدد « ١ » ، الصفحات : ٦٣ـ٦٥ .

وتفتيت الدول والنظم ، وما حدث في حرب الخليج الثانية خير دليلٍ على ذلك!!

أجل!

فهذا هو الهدف الواضح من العولمة الثقافية ، فهي لا تبتعد عن كونها سياسة إمبريالية ، نشأت من رحم الاقتصاد ، ودُرست بعنايةٍ فائقة ، ووُضع لها الهدف المحوري وهو تسويق النموذج الرأسمالي الليبرالي ، سواءً كان ذلك في مجالات الاقتصاد ، أو في مجالات السياسة ، أو الفكر .

أي السيطرة على العالم ، من خلال اختراقه ثقافياً وإعلامياً وفكرياً واقتصادياً واجتماعياً .

حتى لو كان ذلك على حساب صهر خصوصيات الشعوب الأخرى في بوتقة الرأسمالية أو على حساب التبعية الحضارية للأنموذج الأمريكي ونحو ذلك. . . ، مصداق ذلك ما سعت وتسعى إليه أمريكا في تأجيج الصراعات بين دول ما كان يُسمى الاتحاد السوفياتي!!

وهذا ما صرَّح به (بريجنسكي) بقوله : إن السيطرة الأمريكية على العالم تستند إلى هيمنتها على الاتصالات و (٨٠٪) من عدد الكلمات والمشاهد والصور التي تدور حول العالم تأتي من الولايات المتحدة الأمريكية!!

إذن القضية قضية (نكون أو لا نكون) ، فإما إعلام قوي ، وثقافة تستند إلى الأصول ، وسلوكيات لها جذور تراثية ، وتقنيات تساير العصر و. . . .

وإلا فالعولمة الثقافية والإعلامية ، وعندئذٍ ستكون الغلبة للقوي

حتماً ، أي الغلبة لليبرالية الجديدة المتمثلة بالولايات المتحدة المريكية ، وهذه هي (الأمركة) ! ![1] .

مثال ذلك ما يحدث اليوم في أفغانستان ، حيث يتنافس عدد كبير من الأحزاب التي تقف وراء ستار الدين ، مما أدى إلى سقوط ضحايا قُدِّر بأكثر بكثير مما سقط على تحرير أفغانستان من السوفيات ! ! !

وبالتالي . .

استطاع الغرب ، وعن طريق استخدام جميع الوسائل أن يقوم بعمليات تهميش وتحييد للأفكار والأنظمة الأخرى ، وطرح بديلاً عن ذلك أفكاره وأنظمته لكن تحت شعارات برَّاقة خدَّاعة ، مثل العولمة الثقافية والإعلامية .

فالدول العربية مثلاً لم تستطع تبنِّي منهج سياسي واقتصادي وفكري محدد ، بل ارتبطت كل واحدة منها بدولة أخرى ، مما زاد في التبعية والانشقاقات العربيَة ،

فهذه الدولة تتبنى النهج الرأسمالي وتتبعه تماماً ، ومازال البعض يتمنَّون ويحلمون بتبني النهج الاشتراكي وهكذا .

كل ذلك أدى إلى منح إسرائيل فرصة التفوّق على العرب ، سواءً كان ذلك في مجالات التسليح والتكنولوجيا ، أم في مجالات الفكر والثقافة والعلم ، وأدى إلى انهيار التضامن العربي ، وانحسار المسار القومي والوعي العام لمصالح الأمة ، مما أدى إلى تزايد فاعلية التدخل الأمريكي في المنطقة العربية والذي يعطي مزيداً من الفوائد التي لا مثيل لها بالنسبة

---

(١) للتوسع يراجع : حقيقة الجات ، للمؤلف : ٦٧ـ٨٨ .

لأمريكا ، بينما كانت بالنسبة للعرب مزيداً من الفشل والتشرذم ، وما حدث في حرب الخليج خير دليلٍ على ذلك!

أجل!

إنها سياسة التحييد والتهميش ، فلا معنى للعلاقات الاجتماعية ، ولا معنى للقوة ، ولا معنى للهوية الحضارية .

وهكذا يتعرض العرب اليوم إلى حرب ضروس على عدة جبهات ، أهمها التهميش الإقليمي ، والتهميش الاستراتيجي ، وطرح بدائل ما أنزل الله بها من سلطان ، مثل الشرق أوسطية ونحو ذلك . . .

والتهميش السياسي أيضا ، وخاصة عن طريق استخدام قضايا تُطبخ في الخفاء والتي تهدف إلى تكاثر النزاعات السياسية العربية ـ العربية .

والتهميش الاقتصادي العربي ، وخاصة التخلي عن غالبية الطروحات الاقتصادية القديمة ، والسقوط أمام ما تريده الشركات المتعددة الجنسية ، وبالتالي تكريس حالة التبعية . . .

إضافة إلى التهميش التقني ، والتهميش الحضاري . . .

فهل نستسلم أمام سياسة التهميش والاختراق ، تحت حجة العولمة الثقافية ؟!

* * *